# لا بد من صنعا ... وإن طال السفر

وبنفس القوة نقول: لا بد من العودة.. وإن تطاير الشرر!

أجل.. مهما كانت حدة الانفعال الذي يوشك أن يكون نارًا تتهددنا نحن وأعزاءنا.. يَبقى الأمل في عود حميد.. يجتمع به الشمل.. وتلتئم به الجراح..

وحتى إذا وقع الطلاق.. فإننا نستشعر الآمال في لقاء على كلمة الله.. ولو طال بالفراق المدى..

●●●

وما زلت أذكر قصة هذه «المودة» التي جمعت بين قلبين.. والتي تُوِّجت في النهاية بالزواج.

وفجأة.. وعلى غير ميعاد.. بدأ الشرخ يتسع.. ثم يعمُق في الجدار الكبير..

وبدت مشاعر التربص تضرب جذورها في صدر الزوجين.. منذرة بحرب.. تنحسر بها موجة الحب.. ليخسر كلاهما أحب الناس إليه.. وأحيانًا.. تفرض علينا الأنانية أن نكره.. من نُحب!

وجاءت ساعة الصفر.. فكان الفراق.. أوالطلاق.

وفراق أحبَّاء الأمس دائمًا يكون مر المذاق. يذكرنا بما قاله الرافعي:

(إن أشد العداوة ما كانت بين الحبيبين لأنها انشطار كيان واحد على نفسه.. بعدما كان أحدهما يقول للآخر: يا.. أنا!).

وهكذا تَفرَّق أحباء الأمس.. ثم تزوج كل منهما بمن يريد.. وبدأت

فترة من الهدوء.. حَمَلَنَا على الظن بأن قصة الأمس صارت رمادًا..

●●●

وبعد حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.. بدت النار تُعلن عن نفسها من تحت الرماد.. والذي ظنناه سكونًا.. كان هو الهدوءَ الذي يسبق العاصفة!

لقد تبين لنا.. ما يصفه أحد الأدباء بقوله:

(لقد وجدنا حاضر كل منهما يتهدم.. وعُشَّ الزوجية الجديد يترنح.. لماذا؟

لقد هبت على العش الجديد ريح الماضي.. هجمت الذكريات العزاز.. وانفلت عيارها.. بعدما هَجَعَتْ أيامنا.. لقد ظن كلاهما أن الود القديم.. قد دفن.. وَوُرِيَ التراب.. ونَعمْ.. لقد دفن الود القديم..

ولكنه دفن في حنايا القلب!!

وكما يقولون: إن دفين القلب يحيا.. إذا وفاه من الماضي نداء.. وعندئذ ينفتح القلب.. ثم يأذن له بالدخول.. بل يقوم المحب القديم ليستقبله بحفاوة!!).

وهكذا.. إذا أراد الله أمرًا يسَّر له أسبابه.. وكان من الأسباب الميسرة هنا ضرورة الفراق.. ليعرف الزوجان بالتجربة كيف تسرعا.. فافترقا.. وكان لا بد من هذه التجربة العملية.. سبيلاً إلى العود الحميد..

وقد عاد الزوجان.. بعد أن فشلت التجربة الجديدة..

●●●

لقد هبت العاصفة بالأمس.. ففر بها الحب.. ذهب بها الصباح.. حتى ظننا أنه لن يطلع..

لكنه يطلع اليوم أنْضر ما يكون.. وأجـمل ما يكون.. مؤكدًا ضرورة المصابرة.. وأن النفق المظلم.. وإن طال.. ففي النهـاية.. ستكتحل أعيُننا بالنور.. وتفعم قلوبُنا بالسرور.

●●●

**والحكمة ضالة المؤمن**

وفي تراث الإنسانية الضخم ما يؤيد هذه التجربة:

والقصة من «النرويج» وبطلها أحد الصيادين هناك: تزوج فتاة. وعاش معهـا عشر سنوات.. ثم طلقها. وبعـد فراق دام عشرين عامًـا.. كان قد تخطى الخمسين..

وذات يوم نشر إعـلانًا في باب «القلوب الوحيدة» في جريدة مـحلية. ذكر فيـه أنه وحيد.. ولكنه مليء بالحيوية.. ويـعيش في غرب النرويج.. ومغرم بالطبيعة وبالصيد.. وهو يبحث اليوم عمن تشاركه حياته.

وأرسلت إليه إحدى القـارئات رسالة إليه. ومعها صـورة لها: تَعرض عليه فيها أنها تريد أن تكون زوجته التي تشاركه حياته. وتُخرجه من وحدته التي يشكو منها.

وقال الرجل لنفسه وهو يحملق في الصورة:

لقد رأيت هذه المرأة من قبل!

وقد تبين له أنه لم يكن قد رآها فحسب.. ولكن المفاجأة أنه قد عاش معها عشر سنوات!!

لقد كانت زوجـته «ليلى» نفسها.. ولقد التـقى الزوجان من جديد.. ليستأنفا معًا حياة بهيجة سعيدة.

ويعلِّق على الموقف باحث اجتماعي فيقول:

هذه القصة الحقيقية العجيبة.. تشير إلى عدة حقائق أرجو أن يتأملها الزوجان اللذان يفكران ـ أحدهما أو كلاهما ـ في الطلاق:

١ ـ فمهما اختلف الزوجان.. وظنا أنهما متنافران.. ولم يُخلقا للعيش معًا ـ فإن هناك نقاط التقاء كثيرة. فليحرصا على ألا يسلطا الأضواء على ما يختلفان فيه.. ثم ينسيان أو يهملان نقاط الالتقاء. وأوجه الاتفاق.

٢ ـ إن الحياة اليوم ملأى بنماذج كمثل هذين الزوجين: بعضهم قد تزوج ثانية. لكنه ندم على الزواج الأول.

٣ ـ ولعل هذين الزوجين قد ندما على ما كان من طلاقهما وفراقهما.. ولعلهما قالا:

يبدو أن كلا منهما كان قَدَر الآخر.

ولعلهما تحدثا عن خلافاتهما التي كانت سببًا في طلاقهما حديث سخرية!

لأنهما يَرَيانها الآن أسبابًا تافهة.. حرمتهما العيش معًا تلك السنوات الطويلة.

فيا أيها الأزواج (والشباب منهم بخاصة):

تريثوا ولا تتعجلوا الطلاق.. فمهما رأيتم الخلاف اليوم كبيرًا.. فسترونه بعد سنوات.. صغيرًا.. صغيرًا].

●●●

لقد كانت المودة «حَبَّة» فَارَتْ في ماء الغضب يومًا.. لكنها ترسبت في القاع.. وما تزال سارية المفعول.. صالحة للاستعمال!

●●●

# قوامة .. لا قيامة!

يقول (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

**يروي الإمام محمد عبده:**

(أن أحد السائحين الأجانب زاره في الأزهر. وبينما هما مارّان بالمسجد رأى الافرنجي بنتًا مارَّة فيه. فبُهت وقال:

ما هذا: أنثى.. تدخل الجامع؟!!

فقال له الإمام:

وما وجه الغرابة في ذلك؟ قال الضيف:

إننا نعتقد أن الإسلام قرر أن النساء ليس لهن أرواح. وليس عليهن عبادة.

فبيَّن له الإمام غَلَطَه. وفسَّر بعض الآيات فيهن.

وعقب الإمام قائلاً لتلاميذه:

فانظروا.. كيف صرنا حجة على ديننا؟..

ثم انظروا إلى جهل هؤلاء بالإسلام.. حتى مثل هذا الرجل. الذي هو رئيسٌ لجمعية كبيرة.. فما بالكم بعامَّتهم؟!!).

●●●

لقد نظر هذا الباحث إلى المرأة من خلال معاملة بعض الأزواج لها.. فساء ظنه بالإسلام. الذي تبدو المرأة في مرآته كائنًا له قدره.. وله خطره..

وذلك ما تشير إليه الآية الكريمة والتي تقول:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

لهن.. يعني لهن: فحقهن ثابت رَضِي الرجال أم أبوا..

وهو حق لا يحـملْن فيه منَّةً من أحـد.. وإنما هو منحة ممن خـلقهن (سبـحانه وتعـالى).. وليس للرجال دخل فـيه.. ودَوْرهم فقـط أن ينفذوا حكم الله (تعالى) على ما يقول صاحب المنار:

(فالواجب على الرجال بمقتضى كـفالة الرياسة أن يعلموهن ما يمكِّنهن من القيام بما يجب عليهن ويجعل لهن في النفـوس احترامًا يُعين على القيام بحقوقهن. ويُسهِّل طريقه:

فإن الإنسـان بحكم الطبع .. يحـترم من يراه مؤدبًا. عـالمًا بما يجب عليه. عاملاً به.

ولا يُسْهُل عليـه أن يمتهنه أو يهينه. وإن بدرت منه بادرة في حـقه.. رَجَعَ على نفسه باللائمة.. فكان ذلك زاجرًا له عن مثلها). اهـ

●●●

ولكن في أي شيء تكون المماثلة؟

إنها المماثلة في الواجب: ولا تشترط المماثلة في نوعية الفعل.. فليس عليـه إذا غسلت ثيـابه أن يغسل ثيـابها..وإنما عليـه أن يرد الجمـيل.. لا بالغسيل.. وإنما يفعل ما يليق بالرجال من جميل الفعال.. شريطة أن يكون «بالمعروف»:

والمعروف هو:

ما لا تنكره العادة.

ومن صور هذا المعروف:

١ ـ ألا يعنف أحد الزوجين صاحبه.

٢ ـ ألا يكلف أحدٌ أحد بما لا يحسنه.

وفي ريفنا.. قد تقوم الدنيا ولا تقعد.. لأن «العروس» لا تعرف كيف تخبز.. ولا كيف تطبخ؟!

ثم لا تذكر «الحماة» دورها في تعليمها ما تجهل.. مثلما كانت هي في صباها.. وكذلك كنتم من قبل!

وقد يقع الزوج الشاب في حبائل أمه.. ويترتب على ذلك: تطرفٌ.. أدى إليه تطرف.. أو سوء تصرف..

ثم تبدأ مؤامرة الدوران حول الزوجة الشابة حتى تسقط غير مأسوف عليها.. محمَّلةً بأوزار الموقف كله.. مع أن القضية: أنَّ تصرفها كان «ردَّ فعلٍ» في مواجهة «فعل»!

إن إحساس الزوجة الجديدة بالعجز. يؤدي إلى العنف.. وصمتها سيتحول إلى صراخ!

ثم يصير الأمر على ما يقول الشاعر:

إذا ضيَّعتَ أول كل أمر ... أبَتْ أعجازُه إلا التواء

وإن سوغت أمرَك كلَّ وغد ... ضعيف.. كان أمر كما سواء

●●●

إن شريعة العدل توجِّه الأزواج إلى أنه:

(كما للرجال حق الرجعة قهراً.. فللنساء حق العشرة بالجميل.

وكما أن للرجال حَبسهُن.. فلهن حق إزالة الوحشة عنهن.. بما يؤنِسُهُنّ).

●●●

**أهمية المعروف:**

وقد يبرِّئ الزوج ذمته.. فيوفِّي زوجته حقها.. ولكن طريقة الوفاء بهذا الحق تكون خارج نطاق المعروف..

وتلك ناحية أدبية متصلة بكرامة المرأة.. التي هي أحوج ما تكون إليها.. في ذلك الوقت الحساس..

إنه ليس من المعروف مثلاً أن يرى أحد الطرفين أولاده - بعد الطلاق - في قسم الشرطة! أو على قارعة الطريق!

والإسلام حريص على توفير جو من الاحترام المتبادل بين المُفارقين.. فلعل في نظافة المعاملات ما يعين على التفكير السليم.. في عود حميد إلى الوفاق من جديد..

إن أداءَك الحق شيء.. وأداءَه «بالذوق»: بالمعروف شيء آخر..

من أجل ذلك نرى طريقة الأداء المعبَّر عنها «بالمعروف» منبثَّة في كثير من الايات الكريمة.. التي تجعل من أداء الحق ابتداء.. تجعله أداءً «مع إيقاف التنفيذ» حتى تُتَوِّجَه بالإحسان في هذا الأداء.

ونقرأ في ذلك قوله (تعالى):

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقوله (تعالى) ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٤١].

●●●

لقد حُددت الاختصاصات.. ووُزِّعت الأدوار..

والمحدِّد: هو الشارع الحكيم الذي لم يترك حسم القضية إلى «مزاج» أحد..

إنه «زواج» لا «مـزاج» تقاس فـيـه قيـمـة «الملاَّح» بموقـفه في مـهب العواصف.

ألا وإنه قوامة.. لا قيامة:

قِوامة.. تؤدَّي.. وبالمعروف..

لا قيامة.. تورِد الأسرة موارد الحقوف.

# الزوجان
# في ... مرآة القرآن

يقول الله (عز وجل) ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ليست الزوجة «كرة» يقذفها الرجل في الماء.. فتطفو.. أو يضرب بها الجدار.. فترتد إليه!

وإنما هي إنسان: له ما للإنسان من حقوق.. وعليه ما عليه من واجبات.. هذه الحقوق التي وصى بها الرسول (ﷺ).. وفي حجة الوداع..! إشعارًا بهذه الوصية بحقوقها في هذه اللحظات الحرجة.. وأثناء الحديث عن أخطر القضايا المستقبلية.. دال على أن هذه الحقوق لا يجوز الترخص فيها.. ولا التهوين من شأنها.

وذلك قوله (ﷺ):

«أيها الناس:

فإن لكم على نسائكم حقًا.. ولهن عليكم حقا:

لكم عليهن: ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه.

وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة.

فإن فعلن: فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع.. وتضربوهن ضربًا غير مبرح.

فإن انتهين.. فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

واستوصوا بالنساء خيرًا: فإنهن عندكم عوان: لا يملكن لأنفسهن شيئًا.

وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

ونستفيد ـ في شرح الحديث ـ بما تبقى في ذاكرتنا من تعليق أساتذتنا:

١ ـ إن إعادة لفظ «حقا» منكَّرا ومنصوبًا.. يؤكد أن حق المرأة وحق الرجل من واد واحد.. على نفس المستوى من الأهمية.. فهو حق عظيم. وإن بدأ بحق الرجل لأنه الأصل.

٢ ـ وإفراد «الحق» دليل على أن الحقوق لا تتجزأ.. وليعلم الرجل وهو الأقوى.. أن أصالة حقه لا تعني تفرده بكل الحقوق.

لأن لها كذلك حقوقًا.. وليست قطعة من أثاث البيت.. ولا يجوز قضاء حق على حساب آخر.. بل الكل في ميزان العدل سواء.

٣ ـ والتعبير «بالحق» دون «الواجب» لأن الواجب فيه إلزام.. بمعنى: يجب على الرجل كذا..

لكن التعبير «بالحق» يشعر الرجل بأن حقوقها دين في عنقه.. حتى لا يساوم.. ولا يمتهن كرامتها.

إنه حق:

وإذن.. فلنحافظ عليه.. ولندافع عنه.. ولا نتنازل عنه إلا برضا صاحبة الحق نفسها.

٤ ـ وإذا بدأ النص بحق الزوج.. فلأنه الأصل.. وإنما قدِّم في آية ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: ٢٢٨]. لأن حق المرأة لما كان مظنة الإهمال قدم في الذكر.. تذكيرًا به. حتى لا ينسى.

٥ ـ ومن بلاغة الحديث أن يذكر الشيء وضده:

﴿فإن فعلن.﴾.و ﴿فإن انتهين﴾. وذلك يعني ذكر الشيء مرتين: تصريحًا.. وتلميحًا.

٦ ـ أما قوله: ﴿لكم عليهن﴾

فيدل على أنه حق عيني للزوج . .

أما في حقها ﴿فلهن﴾ إشارة إلى أن الزوج لو افتقر . . فإن حقها لا يسقط . . بل هو مستقر لها من بيت المال .

أما عن توطئة الفرش . . **فيقول العلماء:**

الفرش: للزوج . . بخاصة . . فهو سيده الأوحد . وبلا منازع .

والمقصود بالتوطئة:

ألا تظهر الزوجة بمظهر الترحيب الزائد . الملفت للنظر بهذا الضيف القادم .

لا سيما لو كان هذا القادم هو خطيبها السابق . . مما يثير حساسية جارفة لدى زوجها . .

والتعبير بالفراش: يراد به التنفير من إعداده لغيره ، ،

فإن ذلك مما تأباه طبيعة الحرة . . وفوق ذلك طبيعة الزوجة المسلمة .

●●●

وما زلت أذكر هذا المجلس الذي دعيت إليه من قبل والد: ترى ابنته في الخاطب فارس أحلامها . .

لكن الوالد لم يكن يملك دليلاً واحداً على رفضه لهذا الفتى الناجح الصالح . .

اللهم إلا مجرد حساسية عارمة . . لأن والد الفتى كان خطيب والدة المخطوبة في يوم من الأيام؟!

ولقد تحرك الوسواس الخناس مؤكداً له أن هناك وداً قديماً ينبعث اليوم من رقاده . . وبعد ثلث قرن من الزمان . . من أجل ذلك رفض الخطبة . . قامعاً مشاعر ابنته!!

ولاحظ من تقدير الإسلام لهذه الحساسية.. أو لهذه الغيرة أن الرسول (ﷺ) يختار لفظ «أحدًا» في قوله: «**ألا يوطئن... أحدًا**» يعني: أي «أحد» كان: قريبًا.. أم بعيدًا.. رجلاً أو امرأة.. صغيرًا أو كبيرًا.. محرمًا أو غير محرم!

فالزوج حر.. وجهازه العصبي **لا** بد أن يظل هادئًا ليعتدل به ميزان البيت كله!

●●●

ويبقى أن نطامن من حدة هذه الحساسية في صدور بعض الأزواج:

بأن تصرف الزوجة إزاء الضيف القادم. قد يكون تلقائيًا.. وبلا سبق إصرار..

ويمكن التثبت من صحة ذلك على المدى الطويل.. فرارًا من التسرع في اتخاذ القرار..

ذلك بأن الغيرة ليست غريزة.. وإنما هي مشاعر مكتسبة يمكن التخلص منها.. بالمران.. والاعتصام بالإيمان.

فلنترك للزمن دوره.. فقد يكون جزءًا من العلاج.

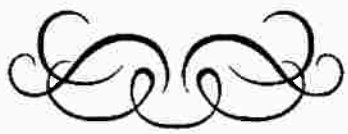

# ثمن الكرامة

(آخر الدواء الكي) حكمة جرت على لسان العرب.. ولا تزال، وتعني: أن الأطباء يحاولون علاج الجرح.. حتى يندمل.. ولكنه لا يستجيب للدواء.. وعندئذ يكون الكي بالنار هو خط الدفاع الأخير في حياة الجريح.. والذي يتحمل ألم الكي راضيًا.. في سبيل الشفاء الذي طال انتظاره، وكذلك فعلت «سلمى الغفارية» والتي تحملت فوق ما يحمل البشر.. في سبيل شيء أغلى وأعلى هو: الكرامة.

ومن قصتها: أن «عروة بن الورد» أغار على قبيلتها «غفار» وكان من صعاليك العرب.. لكنه كان.. شجاعًا.. جوادًا.. وقد وقعت في أسره «سلمى». ثم تزوجها واستولدها.. وذلك على كره منها، وما زال الإحساس بالذل يتنامى في قلبها.. حتى وجدت فرصة للهرب.. فهربت عائدة إلى قبيلتها، وفوجئ «عروة» بالفاجعة.. فلحق بها يطلب منها أن تعود.. على الأقل لرعاية أولادها.

لكنها قالت له: إني أقول فيك ـ وإن فارقتك ـ الحق.. والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك! وأغض طرفًا وأقل فحشًا وأجود يدًا.. وأحمى لحقيقة، ولكن: ما مرَّ عليّ يوم منذ كنت عندك.. إلا والموت فيه أحب إليّ من الحياة بين قومك؟!

طالما سمعت المرأة من قومك تتحدث عني فتقول: قالت جارية عروة كذا وكذا!

والله لا أنظر في وجه إحداهن بعد اليوم ـ من كرهها للعبودية ـ ارجع

راشدًا إلى ولدك.. وأحسن إليهم!!

لقد تتحدث الأنباء اليوم عن تلك المرأة الحديدية.. والتي استطاعت أن تخترق كل الأسوار هاربة إلى هناك.. خلف البحار.. فـرارًا من محاكمتها على ما جنت يداها.. ولكن أين تلك القوة من هذه الزوجة «سلمى» والتي وقعت بين شقى الرحى.. وتعرضت لضغـوط من داخلها فلم تستسلم ولم تلن لها قناة؟!!

لقـد اسكتت صـراخ غـريزة الجنس.. مع زوج هو في رأيهـا خـيـر الأزواج.. ثم تجاهلت غريزة الأمومة.. حين رفضت أن تعود إلى أبنائها.. وهم فلذات كبدها.. كـيف انتصرت المرأة العربية في معـركتين من أشرس المعارك.. ثم دفعت عمرها ثمنًا للكرامة!!

لقد استـغنت عن الزوج.. والولد.. لأن حاجتهـا إلى الكرامة كانت أغلى من ذلك كله، وربما راجع الـزوج نفسـه.. مصـمـمًا على تلافي مـا حدث من نسـاء قومـه، ولكن الأسرة من حوله.. لن تمهـد له الطريق إلى العودة الراشدة.

إن في ذلك لعبرة لكل قـريبة للزوج تحرك لسانهـا بفارغ من القول.. يفرق شمل الجميع.. بالكلمة الطائشة تهدم بها العش الجميل.

إن زورق الحياة الزوجية قد يتهادى على بحر هادئ الأمواج.. يتهادى فيه الزوجان كئوس السعـادة.. وهنا تكون العلاقة «تجارة».. يعطي أحدهما «السبت» ليجـد «الأحد» :أما عندما يثور الموج.. وتـعصف الرياح.. فهنا تظهر المعادن.

وقد كان معدن «سلمى» نفيسًا: ففي ساعة العسرة.. واجهت الإعصار بهذا الاصـطبار.. شهـدت لزوجهـا بما يخلده.. ثم رضيت بالوحـدة التي

رأتها خـيراً من جـارات السوء. . وهي العـزة المشتقـة من الطبيـعة العـربية الأبيـة. . والتي عبـر عنها «الـثوري» بقـوله: لأن أترك عشـرة آلاف درهم يحـاسبني الله عليـها. . أحب إليّ من أن أحـتاج إلى الناس. ولأن أمـضي وأترك بعض مالي يحـاسبني به رب البرية أحب إليّ من وقع احتـياجي إلى نذل شحيح بالعطية.

# أيها الإنسان:
# الثعبان.. لا يلدغ الثعبان!

يقول الله (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

حتى ولو كان صديق العائلة ملكًا يمشي على الأرض.. فلا بد من التعامل معه بحساب.. رعاية لشعور الزوج..

وهو بعض ما يفهم من قوله (ﷺ): «**لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه..**».

إنه لم يقل «تبغضونه».. فالبغض غير وارد أساسًا.. وحتى الكراهية.. فإنما تتعلق بمحادثة الصديق المحتفى به.. بشخصه..

على أن يكون مفهومًا لدى الزوجة أن العبرة بما يكرهه زوجها وما تعلم منه أنه يسئ إليه.. ولو كان هذا «الغريب» ملكًا.. فحق الزوج مكفول .رعاية لشعوره.. ليبقى إحساسه قويًا بأنه فعلاً يحتل مساحة قلب الزوجة كلها.. ولا مكان هناك لسواه.. فالبيت داره وقراره..

وسوف يظل البيت كذلك ما دام الزوج شاعرًا بأنه غير مهدد بشخص آخر يظنه أفضل منه..

وفي هذا الجو الآمن يتخطى الأطفال مراحل النمو محملين ببذور الوئام والسلام.

●●●

ثم يقول (ﷺ) في خطبة الوداع:

«**وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة**».

**يقول العلماء:**

لم يقل (ﷺ) في هذه: «ولكم عليهن..» وإنما قال: «وعليهن...» لأن المرأة منهية عن الفاحشة: كان لها زوج أم لا..

والفاحشة موصوفة «بالبينة».. ويعني ذلك أن تكون واضحة ظاهرة.. تعلن عن نفسها.. كاشفة عن سوء طوية الزوجة بصورة لا تقبل الجدل.. فرارًا من الشك القاتل إزاء كل شائعة لا تحمل دليل صدقها.. والتي قد يسفر التحقق عن بطلانها.

●●●

**نحن.. وهم**

وهنا تظهر قيمة العفة التي هي تاج المرأة وزينتها..

أما في بلاد لا تدين بالإسلام.. فماذا نرى؟:

إن الزوجة هناك لا تدان بالزنا.. إذا حدث ذلك برضاها.. وبنفس القدر: لا يدان الزوج بالزنا إلا في حالة واحدة: إذا تمت الجريمة على فراش الزوجية..

أما في مكان آخر.. فلا جريمة.. ولا مجرم..

ويا لحرية المكان.. وعبودية الإنسان!!

●●●

ثم يقول (ﷺ):

«**فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع..**».

وإذا كان الحرف «إن» للشك.. فإن ذلك يعني حسن ظن بالمرأة التي يفترض الإسلام مبدئيًا عفتها وطهرها.. وأن الانحراف عارض في حياتها: دخيل غير أصيل..

ثم إن الإذن صادر من الله (تعالى). . والزوج مجرد وكيل. . يفعل أو لا يفعل. .

ولاحظ تكرار «المعروف» في علاقة الزوجية. . لأن الزوج هو الأقوى. . وحتى لا يسئ استعمال حق القوامة. فإن الآيات تردعه بين الحين والآخر حتى لا يتصرف خارج دائرة المعروف. . مستبدًا بكائن ضعيف قد يتصور أنه رازقه. . مع أن نفقتها إلى الله (تعالى). . لا إليه.

●●●

**وهذا حكم الله...**

**فماذا عند الإنسان؟**

إن بعض الأزواج يحبون أنفسهم. . وبعمق. . وأحيانًا يسقط بعض هذا الحب على زوجته. . لا لذاتها. . وإنما لتخلص له تلك الزوجة. . لتكون له وحده. . وهذا لون من الأنانية إلى حد ما. .

**والموقف الأمثل هنا:**

أن نركز انتباهنا. . فقد يكون ما نكرهه من زوجاتنا هو بعينه ما نحب. .

﴿ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

وبهذا الفهم الواعي نوفر ملايين الخلايا التي تحترق في معارك وهمية. .

●●●

ولكن هذه المعارك الوهمية تدور رحاها بالفعل. . في خيال أبطالها. . مما حمل زوجة مطحونة أن تشن الغارة على الرجال. .

**تقول:**

(إن المرأة المطلقة.. ليست كالرجل المطلق.. والمرأة العاقر.. ليست كالرجل العقيم.. والعانس.. ليست كالعازب..

ولا كانت الأرملة كالرجل الذي ماتت عنه زوجته:

فالرجل هو الرجل.. وهو كذلك مهما تبدلت أحواله:

هو رجل وإن لم يتزوج.. وهو رجل إن تزوج وطلق.. وهو رجل إن لم ينجب.. ويظل رجلاً إن ماتت زوجته.. لكن المرأة لا تصبح امرأة طبيعية إن طلقت.. ولا تصبح امرأة طبيعية إن لم تنجب.. أو لم تتزوج..

إنها توضع في قفص داخل قفص! وتخرج العيون من مآقيها خناجر تطعنها في سيرتها فتزيدها عذابًا فوق عذاب.. فهي لا تبتلى فقط بنظرات الرجال.. ولكن بنظرات بني جنسها أيضًا).

●●●

وإنها لنفثة مصدور.. قد يكون لها ما يسوغها.. لكنها وإن كانت صادقة.. إلا أنها لن تكون قانونًا.. ولا قاعدة.

وإذا كان المجتمع غير منصف في نظراته الحولاء إلى المطلقة.. فإن الإسلام ينصفها.. وفي ساعة العسرة.. وأخطاء بعض الأزواج محسوبة عليهم لا على الإسلام.

●●●

لكن ذلك لا يمنعنا من التذكير بما يحدث في دنيا الحيوان. وحتى الزواحف.. من وفاء لعله أن يكون عبرة للإنسان:

(إنها تتصارع بسبب الطعام أو مناطق النفوذ.. أو منافسات التناسل..

ثم ينتهي تصارعها بحركات رمزية ينسحب بها الضعيف منها أمام

القوي:

فالذئب المستلسم يتدحرج على ظهره.. والقرد المغلوب يشيح بنظره بعيداً.. ويتوقف المهاجم.. وحتى الثعابين:

تتصارع.. وتتناطح برءوسها الصغيرة.. لكن الثعبان لا يلدغ الثعبان).

ويا ليت قومي يعلمون.. وليتهم حين يعلمون.. يعملون!

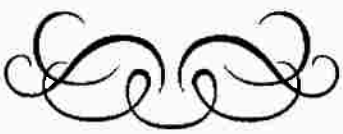

# التزين هذا القاسم المشترك

يقول الله (عز وجل) ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

من مقاصد الشريعة الإسلامية: تكوين أسرة صالحة مصلحة.. وفي سبيل تحقيق هذا المقصد الأسمى.. يشرع الإسلام من الآداب ما يمكن الأطراف المعنية من إنشاء علاقات نامية.. وبخاصة بين الزوجين.. على أساس من الاحترام المتبادل.. عن طريق التزام كل طرف بأداء حقه تجاه الآخر طيبة بذلك نفسه..

وأهم من ذلك أن تؤدى الحقوق محفوفة بالاحترام.. وإلا.. فإن الأمر على ما يقول (سبحانه وتعالى):

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

●●●

وفي طليعة حقوق الزوجة.. والتي تتصل بسعادة الأسرة اتصالاً مباشرًا. والتي أهملها البعض إهمالاً معيبًا.. حقها في أن يكون زوجها منسق الهندام.. مقبول الصورة.. حتى لا يغريها مشهد الآخرين.

وبذلك نسد بابًا من أبواب الفتنة التي قد تجعل من الطلاق حلاً لمشكلة.. كان من السهل تلافيها.

●●●

وقد فطن إلى هذا الحق المغيب ناس على قمة الورع.. ومنهم ابن عباس (رضي الله عنهما) والذي قال:

(إني لأتزين لامرأتي. كـما تتزين لي. وما أحب أن آخـذ حقي الذي لي عليها كله.. فتستوجب حقها الذي لها عليّ..

لأن الله (تعالى) يقول:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

●●●

ومنطق ابن عـبـاس (رضي الله عنهما) كان واقـعيًا: لأنه يعلم أن للزوجـة عينًا ترى.. وأذنًا تسمع.. وقد تجد في الرجل الغريب ما لا تجده في زوجها..

فإذا هو لم يشبع رغبتـها في حسن الهندام.. أعرضت عنه.. إلى من قد ترتبط به شعوريًا.. وإن لم يكن ذلك واقعيًا!

ولاحظ من فقهه (رضي الله عنهما):

أنه لا يطلب من زوجـته كل حـقوقـه عليهـا.. حتى لا تطالبـه هي الأخرى بكل حقوقها في عنقه.. وذلك ما لا يستطاع.

وهذا تقدير واع لمشاغل الأسرة.. التي قد تتسع وتتفاقم أحيانًا.. فلا تترك للـزوجة مجـالاً لزينة.. حين تنازعهـا مشكلات الأولاد.. ومـتاعب العيش.

●●●

ونلفت النظر هنا إلى الفرق الهائل بين النظـافة.. كمطلب أساسي.. وبين الأناقة التي ترهق ميزانية البيت بما لا تتحمله.

والمسألة في جـوهرها ليست ثيـابًا غالية.. كـما وأنها ليـست وسائل مستوردة نضيف بها من حساب الأسرة المسلمة إلى حساب غيرنا..

لكنها بالـدرجة الأولى: إيمان بالنظافة.. يظهـر أثره على الزوج على نحو يجعله دائمًا وفي نظر زوجته متجدد الحيوية.. فرارًا من أسف.. يصير

قلقًا . . فكراهية . . فرغبة في الفراق!

●●●

وقد كـان لأسلوب ابن عبـاس مدرسـة: اقتفت أثره . . وجـعلت من قراره أساسًا لمناهج مدروسة:

**جاء في تفسير القرطبي:**

(أما زينة الرجال: فعلى تفاوت أحوالهم:

فـإنهم يعملون ذلك على اللـبق والوفاق ـ أي على مـقتـضى اللباقـة وموافقة الحال:

فربما كانت زينة تليق في وقت . . ولا تليق في وقت.

وزينة تليق بالشباب . . وزينة تليق بالشيوخ. ولا تليق بالشباب.

ألا ترى أن الشيخ والكهل إذا حف شاربه ليق به ذلك وزانه. والشاب إذا فعل ذلك . . سمج ومقت.

وكذلك في شأن الكسوة:

ففي هذا كله ابتغاء الحقـوق . . فإنما يعمل اللائق ليكون عند امرأته في زينة تسرها ويعفها عن غيره من الرجال.

وكذلك الكحل من الرجال:

منهم من يليق به . . ومنهم من لا يليق به.

فأما الطيب والسواك. وفضول الشعر. والتطهير. وقلم الأظفار . . فهو بيِّن موافق للجميع.

والخضاب للشيوخ . . والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة. وهو حلي الرجال).

ويواصل القرطبي حديثه فيقول:

(ثم عليـه ـ أي الزوج ـ أن يلاحظ أوقـات حـاجاتهـا إلى الرجـال. فيعفها. ويغنيها عن التطلع إلى غيره).

●●●

وإذ تتطور الحيـاة.. وتتجدد مظـاهرها.. فلا بأس من مواكـبة هذه الحياة بما هو منسجم من الزينة مع روح العصر.. ذلك بأن كثيراً من الأزواج قد يتساهلون في أمر التزين أو النظافة فيـعرضون مستقبل الأسرة للخطر.. ومعظم النار من مستصغر الشرر.

في الوقت الذي يركز الشارع الحكيم عليـها ضمانًا لاستقـرار البيبت. ألا إن الحرص على الهندام المنسق فـقط.. ثم إهمال قيمـة النظافة التي هي قمة التزين.. كل ذلك مناف لمنطـق الإسلام الذي ربط بين النظافة والسلام النفسي.. وذلك في قوله (تعالى):

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ [الأنفال: ١١]

●●●

ومن فقه علمائنا أنهم لمسوا حقيقـة من حقائق النفس الإنسانية.. فيما أوردوه من ضرورة ملاحظة وقت حاجة الزوجة إلى الرجال..

ذلك بأن الزوج قـد يفهم أنه سـيد الموقف.. وأن زمـام المبادرة بيـده هو.. وإنما المتـعة متـعتـه هو.. والوقت المناسب هو مـا استـيقظت فـيه غريزته.. متجاهلاً حاجة الطرف الآخر ووقته المناسب أيضًا!.

●●●

إن التزين.. والنظافـة كما هي حق للزوج.. فـهي وبنفس القوة حق للزوجة أيضًا..

وإذا لـم يأمر بها الدين.. فإنها مطلب من مطالب الفطرة السوية.. بل

قد تتحول إلى عبادة يثاب عليها في منطق دين يقرر:

أن النظافة من الإيمان..

وإن الله جميل يحب الجمال

نظيف.. يحب النظافة